

الحب في فلسفة فويرباخ

الدكتور منذر شباني*

رزان شعبان**

(تاريخ الإيداع 27 / 7 / 2015. قبل للنشر في 7 / 2 / 2016)

□ ملخص □

حاول فويرباخ أن يجعل من الحب قوة لا تعادلها قوة ، فهو الغالب لكل من يواجهه حتى لو كان الله ، فالحب هو المنتصر ، و هذا ما جعل من مفهوم الحب عند فويرباخ مفهوما متميزا عن كل من تناوله من الفلاسفة قبله ، هذا الحب الذي يتغلغل في المادة والروح معا فهو لا ينفصل عن جسدنا ، ولا يعيش خارج روحنا ، بل هو أساس الجسد و ماهية الروح .

أراد فويرباخ أن يجعل من الحب صلة وصل بين إنسان و آخر ، فلا حب بوجود أحدهما دون الآخر ، ولا يقف فويرباخ عند هذا الحد بل لا يعترف بوجود إنسان غير محب ، فمن لا يحب ليس موجود ، حتى الدين إذا لم يقوم على أساس الحب ليس له منفعة ولا أهمية لأن الحب هو العلة ، أي أن السبب وراء وجود الدين هو الحب .

الكلمات المفتاحية : المثالية الذاتية، الحسية الفويرباخية ، الهوى الديني ، الاختلاف الجنسي ، فلسفة المستقبل .

* أستاذ مساعد - قسم الفلسفة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة تشرين - اللاذقية - سورية.

** طالب دراسات عليا (ماجستير) - قسم الفلسفة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة تشرين - اللاذقية - سورية.

Love In Feuerbach Philosophy

Dr. Monzer Shbani*
Razan Shaaban**

(Received 27 / 7 / 2015. Accepted 7 / 2 / 2016)

□ ABSTRACT □

Feuerbach tried to make the power of love a kind of power that cannot be matched with any other power as love defeats all his opponents even if God is one of them. Love is always victorious. That's what made the concept of love in Feuerbach's ideas a distinguished and unprecedented concept comparing to all concepts handled by those philosophers before him. This kind of love dominates the body and soul together and it is inseparable from our body, may not live outside our soul, it is the basis of the body and the essence of the spirit.

Feuerbach wanted to make love a link between a mankind and another so there is no love if one existence and the other is absent. Feuerbach doesn't limit himself at this point but goes on to ignore the existence of human being without being in love or loved by other person. That who does not love does not exist, even religion has neither benefit nor importance if it is not based on love because love is the reason and core in other words love is the reason behind the existence of religion.

Key words: the ideal self, sensual Alfoerpachah, religious passion, sexual difference, future Philosophy.

* Assistant Professor - Dept. of Philosophy - Faculty of Arts Humanities - Tishreen University – Lattakia - Syria.

** Postgraduate Student - Dept. of Philosophy - Faculty of Arts Humanities - Tishreen University – Lattakia - Syria.

مقدمة :

يبدأ بولس الرسول في نشيد الحب بقوله " إن كانت لي نبوة و أعلم جميع الأسرار و كل علم وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال و لكن ليس لي محبة فليست شيئاً ، و إن أطعمت أموالي و إن أسلمت جسدي حتى أحترق و لكن ليس لي محبة فلا أنتفع شيئاً "[1]

هذا ما جاء في الدين المسيحي و إذا أردنا أن نذكر ما جاء عن الحب و فضله في مختلف الأديان الأخرى السماوية و غيرها لما انتهينا و أتحدث هنا عن الأديان لأن الحب عند فويرباخ هو الدين الأسمى لذلك لا أستطيع الحديث عن الحب عنده دون ذكر الدين .

الحب ارتباط وتواصل ، ومن الأفضل عند فويرباخ بدلا من القول بأن الله يحب أن نقول الله هو الحب ، وبهذا نوسع مفهوم الله ، " فالحب دفع الله إلى نيل ألوهيته "[2] فالحب هو مشاركة وانسجام ، وهو قانون الوجود . و عند الحديث عن الحب قد يسأل سائل ما الفرق بين الحب و الهوى ؟ إن الهوى هو من المشاعر المتاخمة للحب و لكنها أدنى منه و نستطيع أن نضع قول لأحدهم في هذا الخصوص حيث يقول : " إن الحب و الهوى هما مثل الألماس و الغرانيت ، مع أنهما صنعا من مادة واحد إلا أنهما يتميز أحدهما عن الآخر بخواصهما الأساسية و بينائهما "[3]

وبالتالي هذا يؤدي بنا إلى القول أن العجز عن الحب ينبع من فقر الشخصية ، لأن أي إنسان يستطيع أن يلبي رغباته دون الشعور بالحاجة إلى الآخر ، أما المحب فلا يستطيع أن يعيش بعيدا عن الآخر، فأصدق العلاقات هي علاقة الحب ، فعندما نحب ، " لا نحب عبر شخصنا لكن عبر جوهرنا الذي هو جوهر الآخر ، ويتكون من ذلك رابطة جوهرية بيننا و بين الآخر ، حين نحب نصبح أكثر ثراء و أكثر عمقا وأكثر قوة من الشخصية المجردة .، فإذا شعرت بالحب ستستطيع أن تقول أنك شعرت بالعالم كله ، وهذا القول لكبار الصوفية، أما بالنسبة لفويرباخ فهو يضيف إلى ذلك : عندما تعترف ذهنيا وجدليا بالحب تستطيع أن تقول أنك تعرفت على الكل، تستطيع أن تعرف الله، الموت "[4] وهذا ما سنتحدث عنه في القسم الأخير من هذا البحث ، ولكن ما يجب التأكيد عليه الآن هو أن فويرباخ من الفلاسفة العملاقة في تاريخ الفلسفة ، ولكن لا أدري لماذا لم تترجم أعماله كما يجب على الرغم من أهميتها وجدتها ، فهو الذي تحدث عن الدين بشكل علمي وانتقد اللاهوت الكلاسيكي ، وهو الذي تحدث عن تأليه الإنسان ، وعن فلسفة المستقبل التي اهتم بها بشكل كبير في أغلب أعماله ، وكذلك الحب فقد تكلم عنه بشكل مختلف تماما عن سبقوه ، ولذلك اخترته كموضوع لبحثي هذا .

أهمية وأهداف البحث :

[1] العوا ، عادل، مقدمات الفلسفة ، جامعة دمشق ، دمشق ، 1986، ص372 .

[2]- Feuerbach (Ludwig) , "The Essence of christianity", Translated from second German edition by Marien Evans , George ElialHorper& row publishers , New york and London , 1957,p52.

[3]-مجموعة من المؤلفين : فلسفة الحب ، ترجمة هيثم صعب ، د.م، د.ت، ص264 .

[4]-عطية ، أحمد عبد الحليم ، الإنسان في فلسفة فويرباخ ، دار التنوير ، د.م ، 2008، ص172-173.

تكمن أهمية هذا البحث في تناول فويرباخ للحب ، وارتباطه بالدين حيث عدّه الدين الأسمى ، وهذا ما جعل مفهوم الدين عند فويرباخ متميزا عن جميع الفلاسفة الذين تناولوه من قبله فهو لم يتحدث عن حب يقتصر على الروح فقط بل تحدث عن حب يمزج المادة والروح معا ، وهذا ما سنتناوله في هذا البحث لعلنا نقدم دراسة جديدة لصاحب فلسفة المستقبل (فويرباخ) .

منهجية البحث:

يعتمد استخدام المنهج في بحث ما على خصوصية هذا البحث أو ذاك ، و بما أن البحث الذي بين أيدينا يتناول فيما يتناول الحب بوصفه حبا ماديا كما هو روحيا ، استخدمت المنهج الجدلي التاريخي ، فإننا نجد أن استخدام المنهج المادي الجدلي التاريخي يساهم في إضاءة ما نحن مقدمون عليه.

أولاً- علاقة الحب بالحسية الفويرباخية :

يقول فويرباخ : " وحده حق وإلهي ما هو واضح كالنهار ، فقط الحسي واضح كالنهار ، فقط حيث يبدأ المحسوس تنتهي كل الشكوك وكل الشجارات " [1] وهنا تظهر أهمية الحس في فلسفته فقط ما هو حسي هو حقيقي . ولكن ماذا عن الحس الذي يمتلكه الحيوان ، هل هذا هو الحس الذي يتحدث عنه فويرباخ ؟ أليس للحيوانات حواس تفوق حواس البشر ؟

هذه الأسئلة يجيب عنها فويرباخ بتمييزه بين الحس الحيواني والحس الإنساني الذي يتصف بالشمولية ، فهو لا يتحدث عن العين بوصفها جهاز بصري يقوم بعمليات معقدة من أجل وضوح الرؤية ولكنه يتحدث عن العين بكونها جهاز حس فهي لا ترى من أمامها فقط بل و تشعر بها " فالحواس لا تعطينا فقط الحدس الحسي كما اعتبر الحسيون السابقون ، بل هي أيضا مصدر العاطفة والحس " [2]

قبل الحديث عن الحسية الفويرباخية لابد من إلقاء الضوء على ما يقصده فويرباخ بالإنسان الكامل فعلى أن ننسب إلى تمييز الإنسان عن الحيوان ، فالإنسان هو كائن كلي والكائن الذي لا يفكر ليس إنسانا ، ولا ننسى أن الإنسان كائن حر بخلاف الحيوان ، وهذا ما يوضحه فويرباخ في المبدأ (53) من كتابه مبادئ فلسفة المستقبل حيث يقول: " ليس بأي حال الفكر وحده هو الذي يميز الإنسان عن الحيوان . بالعكس إن كينونته كلها هي التي تميزه عن الحيوان أجل الحواس الحيوانية أكثر نفاذا من الحواس الإنسانية ، ولكن فقط إزاء أشياء محددة ، مرتبطة حكما بحاجات الحيوان إن حاسة كلية هي فهم ، إن حساسية كلية هي روحية ، حتى الحواس الأدنى الشم و الذوق ، يمكن أن تبلغ في الإنسان كرامة و سمو أفعال روحية و علمية حتى معدة الإنسان ، في كل الازدراء الذي ننزله بها ، ليست كائن حيوانيا بل كائن إنساني ، لأنها كلية ولا تقتصر على مأكولات من أنواع محددة ... " [3] وبالتالي الإنسان الذي تقوم عليه الفلسفة الجديدة هو ذلك الإنسان بكامله ، بعقله وفؤاده ، فالإنسان الموضوع الوحيد والكلي و الأسمى لهذه الفلسفة ، و مما سبق نجد أن الحسية عند الحيوانات لا تتخطى مرحلة الحدس الحسي ، في حين أنها تصل عند الإنسان إلى ذروتها : الحب .

[1] فويرباخ ، لودفيغ ، مبادئ فلسفة المستقبل ، ت. الياس مرقص ، دار الحقيقة ، بيروت ، 1975 ، ص 300.

[2] ديب ، حنا ، هيجل و فويرباخ ، دار أمواج ، بيروت ، 1994 ، ص 284.

[3] -المرجع السابق ، ص 321 .

ويعد هذا التوضيح الضروري لمكانة الإنسان في فلسفة فويرباخ أستطيع العودة إلى الحس و أهميته في هذه الفلسفة ، فهو كما نعلم مفتاح العواطف الإنسانية التي أريد التطرق إليها في هذا البحث . ولكن ماذا نقصد بالحدس الحسي ، هل هو الحدس البدائي ، الفطري الذي لا يتطور ؟ هل هو العلاقة المباشرة مع الأشياء الخارجية فقط ؟ الحدس الحسي مباشر وفيه يكون تعاطي الإنسان مع موضوعه خارجيا " وفي الحدس الحسي تتحقق الوحدة الحقيقية للذات والموضوع ... لكن لو توقف الإنسان عند الحدس الحسي لكان ينظر إلى جميع موضوعاته نفس النظرة ، وكان تعاطيه مع الإنسان كما مع الأشياء الأخرى... لكن انتقال الحسية إلى مستوى جديد العاطفة ، هو الذي سيسمح بإدراك الموجودات من الداخل ، الإنسان هنا لا يعود إنسان فقط ، بل يصبح إنسانا جميلا أو قبيحا ، نظرتة توحى بأسرار ... الحسية هنا لن تعود مجرد حسية بمعنى أن حواسنا تعطينا الخبرة بالشيء بل تتحول إلى = حدس حسي + عاطفة + فكر" [1].

و بذلك أكد فويرباخ أن مكانة الحس هي مكانة متسامية وليست دونية كما اعتبرت الفلسفة القديمة ، ولكن هذا لا يعني أنه لم يفرق بين إمكانية وجود حواس مبتذلة ، وأهمية تمييزها عن الحواس المثقفة ، فهو لا يتحدث عن الحواس الفطرية كما ذكرت سابقا لذلك ينتقد التجريبية ويقول " إنها محقة حين تستمد من الحواس أصل الأفكار ، لكنها تنسى فقط أن الأهم والأكثر جوهرية من بين موضوعات الحواس الإنسانية هو الإنسان نفسه " [2] فأحاساسات الحب هي دائما جسدية ، و دائما شعورية ، لأن الإحساس لا يمكن أن يعيش خارج الجسد ، خارج المادة الحية : مادة هذه الإحساسات . و كما أنه لا يوجد ريح من غير هواء ، لأن الريح هي حركة الهواء ، فإنه لا يوجد شعور من دون إحساس ، فالحب من ثم هو تيار من المشاعر الروحية ، إلا أنها " جسدية " في أساسها ، و إن مكون الحب المادي - الحسي ينصهر دائما مع مكونه الروحي - المثالي " [3].

" و هكذا فإن نزعة فويرباخ الطبيعية تذهب إلى أن الإدراك الحسي ، و الحساسية . و الإحساس هم الأداة الصحيحة للفلسفة" [4]

ثانياً- الأنا و الآخر في الحب:

تحدث فويرباخ مؤسس الفلسفة الإنسانية عن أهمية العلاقات الإنسانية على مختلف أنواعها حتى وصل إلى أسماها و هي علاقة الحب القائمة بين الأنا و الآخر ، عمل فويرباخ على تأليه الإنسان أو أنسنة الإله بتعبير أصح و من هنا كانت أهمية علاقة الإنسان بالإنسان لأن لهما ذات الجوهر و هنا يكمن الحب بمفهومه الأوسع . هذا الأنا بأحد معانيه هو الفكر و الأنت هو الحب ، فأنا أستطيع أن أفكر بمفردتي و لكن هل أستطيع أن أحب بمفردتي ففي حين " يمكن أن يفكر الإنسان بمفرده نجد أن الحب غير ممكن إلا باثنين ... أنا هذا هو الفكر .. أنت هو الحب ، الحب المصحوب بالفكر و الفكر المصحوب بالحب، هو قبل كل شيء الروح، الإنسان بتمامه " [5]

و هذا يدعم قوله عن ماهية الإنسان الكامنة في الفكر و الفؤاد معا و يؤكد اتساق و تماسك فلسفة فويرباخ الإنسانية التي تنطلق من الإنسان وتعود إليه . الحب لا يقتصر على علاقة الذكر والأنثى فقط و إن كانت هذه العلاقة

[1] أديب ، حنا ، هيجل و فويرباخ ، ص 286 .

[2] فويرباخ ، لودفيغ ، مبادئ فلسفة المستقبل ، ص 305 .

[3] مجموعة من المؤلفين : فلسفة الحب ، ت هيثم صعب ، ص 252 .

[4] أماركيوز ، هيربرت ، العقل و الثورة (هيجل و نشأة النظرية الاجتماعية) ، ت . فؤاد زكريا ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، د. ت ، ص 265 .

[5] أديب ، حنا ، هيجل و فويرباخ ، ص 216 .

هي الأهم و لكن الحب يشمل العلاقات الإنسانية بمجملها التي تنشأ بظله و أهمها هي الحب الجنسي هذا الحب الذي يخاف أغلبية الناس من لفظ اسمه على ألسنتهم ، أما فويرباخ تكلم عنه بحرية مطلقة لأنه آمن به و رأى فيه الاتحاد الأهم في تاريخ البشرية و التماهي بين الأنا و الأنت حتى يصبحا أنا واحدة لا انفصال فيها ، فكان " يؤوله العلاقات بين البشر و التي تأتي من حاجة (أنا) و (أنت) أحدهما إلى الآخر حاجتهما المتبادلة بمعنى الحب الجنسي قبل أي شيء ، و يجعل فويرباخ هذه العلاقات متدرجة في مستويات على غرار الحاجات التي تنشأ عند الناس في المعاشرة و النشاط المتبادل "[1]

حيث يكون وجود الأنا في اجتماعها و مشاركتها و وحدتها و دون هذه الوحدة لا وجود للأنا ، فجوهر وجودها تستمد من تواصلها مع الآخر و هذا ما عبر عنه فويرباخ بقوله : "الإنسان لذاته لا يملك في نفسه جوهر الإنسان ... إن جوهر الإنسان ليس محتوى عليه إلا في الاشتراك (الاجتماع) في وحدة الإنسان مع الإنسان ، الوحدة التي لا ترتكز إلا على واقع تميز الأنا و الأنت "[2] إن قوله (واقع تميز الأنا و الأنت) تؤكد أن فويرباخ عندما يتحدث عن ذويان الأنا من أجل الآخر هو لا يلغي الأنا بل يصبح وجودها من خلال وجود هذا الآخر و بهذا نصل إلى اللا محدودية في حين أن انعزال الإنسان عن الآخرين هي محدودية " فالاعتزال محدودية و حد ، الاشتراك حرية و لا محدودية الإنسان لذاته هو إنسان ، الإنسان مع الإنسان وحدة الأنا و الأنت هذا هو الله "[3]

و هذه الوحدة تنطبق على أي علاقة إنسانية و لكنها تكون بأعلى درجاتها بين الرجل و المرأة لأن الاختلاف بينهما أوضح فالوحدة بينهما لها وجود خاص وجود إلهي لأن الرجل و المرأة لا يختلفان عن بعضهما بالشكل فقط بل الاختلاف هو اختلاف جوهري بينهما لأن شكل كل منهما يدل على مضمون مختلف تماما عن الآخر و مع ذلك يستطيعان أن يتحدا بأجمل صيغة للاتحاد " فالاختلاف الجنسي ليس سطحيا أو محدودا فقط ببعض أجزاء من الجسم إنه يخترق العظم و النخاع ، ماهية الرجل هي الرجولة و ماهية المرأة هي الأنوثة . بالتالي الشخصية ليست شيئا بدون الاختلاف الجنسي ... فالاختلاف ليس واقعا حيا و حارا إلا بوصفه اختلافا بين الرجل و المرأة ، للأنت بين الرجل و المرأة دوي مختلف عن رتبة الأنت بين الأصدقاء "[4] و قد يكون في هذا رد على الحب بين الأصدقاء عند أفلاطون .

انسجام الأنا و الآخر لا يكون فقط بنكران الذات ، لأن الذات في الحب تصبح واحدة فلا فرق بين الأنا و الآخر في الحب أي لا يوجد أنا و أنت بل يوجد أنا بالنسبة لأنا ، و أنا بالنسبة لأنت فعندما يتعامل أنا مع حبيبه هو يتعامل مع ذاته ، فإذا كان سعيدا لا بد و أن يكون (أنا) سعيد أيضا و هذا ما يعلنه فويرباخ عندما يقول " في الحب لا يجوز أن نسعد أنفسنا من غير أن نسعد الآخر بالوقت نفسه ، و لو بطريقة عفوية ... فكلما جعلنا الآخر سعيدا صرنا نحن أنفسنا سعداء "[5] قد يقول قائل من هذا الذي يهتم بسعادة الآخر و يستمد سعادته منها ، المحب و المحب فقط هو من يسعد بسعادة حبيبه و من يحزن لحزن هذا الحبيب - الذي يختصر العالم - و هنا نتحدث عن حب صادق لا يعيشه أي إنسان بل هو حب الخاصة ، نعم يوجد في الحب خاصة و عامة ، فليس كل من أحب قادر على

[1] مجموعة من المؤلفين :فلسفة الحب ، ص 121 .

[2] فويرباخ ، لودفيغ ، مبادئ فلسفة المستقبل ، ص 324 .

[3] المكان نفسه .

[4] ديب ، حنا ، هيجل و فويرباخ ، ص 288- 289 .

[5] مجموعة مؤلفين : فلسفة الحب ، ص 262 .

العتاء دون حدود ، و ليس كل من ادعى الحب هو محب بالفعل ، و ليس كل من أحب استطاع أن يدافع عن هذا الحب الذي هو من أبسط حقوقه ، و يجسد تشيرنيشيفسكي في مذكراته لمرحلة الشباب في خطابه لمحبوته حيث يقول: " تذكرني أنني أحبك كثيرا إلى درجة أنني أفضل سعادتك على حبي "[1] هذا هو حب الخاصة الذي تحدثت عنه .
ثالثاً- أنا أحب إذا أنا موجود :

ما هو الوجود ؟ متى بدأ الوجود ؟ كيف يوجد الإنسان ؟ لم أسأل هذه الأسئلة كي أستحضر الفلاسفة من كافة العصور ليجيبوا عليه و لكن أسأله لارتباطه الوثيق بهذا البحث و من أجل أن أصل إلى سؤال ما هي مرتبة من لا يحب من الوجود ؟ هل هو موجود حقا ؟

" فقط حيث يوجد فؤادك ، أنت كائن "[2] و بذلك يكون حيث يغيب فؤادك ، أنت لا كائن ، الجملة الأولى هي لفويرباخ أما الثانية هي استنتاج من الأولى المهم أن فويرباخ أراد من قوله هذا أن يؤكد أهمية العاطفة التي أهملت كثيرا و دُمرت في بعض الأحيان ، قد يكون هذا الإهمال للعاطفة و عدم الاعتراف بها هو الذي حرض فويرباخ إلى التطرف في حديثه عن العاطفة لذلك نجده قد فضل الفؤاد على العقل حتى جعل الوجود هو وجود هذا الفؤاد ، والعقل هو مجرد أداة يستعملها الفؤاد، فهو يرى أن " للمشاعر الإنسانية دلالة أنطولوجية وميتافيزيقية ، العواطف الأكثر يومية ، تخفي أعماق و أعلى الحقائق ، فالحب هو الدليل الأنطولوجي الحقيقي على وجود موضوع ما خارج رأسنا ولا يوجد دليل آخر على الكائن سوى الحب "[3]

عند قراءة كتاب مبادئ فلسفة المستقبل نلاحظ أهمية الحب في فلسفته وخاصة عندما يتحدث عن استناد الفلسفة الجديدة على حقيقة الحب فمن يريد أن يتعرف على حقيقة هذه الفلسفة لابد له من العاطفة ، هذه الفلسفة حسب تعبير فويرباخ هي " جوهر الشعور مرفوعا إلى الوعي ، عملها فقط أنها تؤكد في العقل ومعه ما كل إنسان يعترف به في فؤاده .⁴

وأكثر من ذلك ، الحب ليس فقط معيار موضوعي للوجود بل المعيار الذاتي للوجود ، يعني للحقيقة والواقع ، فأنا موجود بقدر ما أحب ، والعكس صحيح ، يقول فويرباخ : " في حين أن الفلسفة القديمة كانت تقول : ما ليس مفكرا ليس ، تقول الفلسفة الجديدة بالعكس : ما ليس محبا ، ما لا يمكن أن يحب ليس "[5] و بذلك يقلب فويرباخ الكوجيتو الديكارتي : (أنا أفكر إذا أنا موجود) ليصبح : (أنا أحب إذا أنا موجود) ، " الكائن هو إذا سر للحدس ، للشعور والحب "[6]

بالعاطفة فقط يتعرف الإنسان على داخلية الإنسان ، في الحب فقط يصبح المتناهي لا متناهي ، فيالحب فقط يصبح للفرد قيمة مطلقة ، هنا تكمن حقيقة و ألوهية الحب " فقط في الحب يملك ال"هذا" (هذا الشخص ، هذا الشيء) المفرد قيمة مطلقة ، و المحدود هو لا محدود ، فبذلك فقط عمق وإلهية الحب و حقيقته اللا محدودة ... الإله المسيحي ليس سوى تجريد للحب الإنساني ليس إلا صورة عنه ... ففي الحب

[1] المرجع نفسه ، ص 260.

[2] فويرباخ : مبادئ فلسفة المستقبل ، ص 297.

[3] المرجع نفسه ، ص 298.

[4] المرجع نفسه ، ص 296.

[5] المكان نفسه .

[6] المرجع نفسه ، ص 305.

وحده و ليس في الفكر المجرد ينكشف سر الكائن [1] لكن ماذا يقصد بسر الكائن ، وكيف له أن ينكشف ؟ وماذا عن اللا كائن ؟ ما هو الفرق بينه وبين الكائن ؟في بداية هذا الفصل ذكرت أن الكائن الذي يتحدث عنه فويرباخ هو كائن الحواس ، لذلك اللا كائن في فلسفته هو الخالي من الشعور والانفعال (الفكر المجرد) حيث " الحب انفعال والانفعال وحده محك الوجود . وحده موجود ما هو موضوع للانفعال .. الفكر المجرد يحذف الفرق الذي يميز الكائن عن اللا كائن ، و لكن هذا الفرق التافه بالنسبة للفكر ، واقع بالنسبة للحب ، الحب لا يعني شيئاً آخر سوى ملاحظة هذا الفرق، أن يكون شيئاً ما أو أن لا يكون سيان لمن لا يحب شيئاً "[2].

وبالتالي واقع شعوري بالألم والسرور بسبب غياب من أحب بعد أن كان حاضرا ، يؤكد أن هناك موضوع متميز عني ففي الحب أميز بين الوجود و اللاوجود ، في غياب المحبوب تبقى ذاتي هي ذاتي نفسها ، لكن الموضوع الذي أتمثله في ذاتي ليس هو الموضوع الواقعي ، بل ذاتي هنا هي نفسها الموضوع ، إذا الذات من جهة هي الذات ومن جهة أخرى هي الموضوع ، من هنا نشأ التناقض ، فالذات أصبحت ذاتا و موضوعا في آن معا ، وعن هذا التناقض نشأ الألم وزوال الألم يكون يحل هذا التناقض أي بعودة الموضوع الواقعي : الحبيب ليواجه ذاتي كموضوع ، وهذا يؤدي بنا إلى أهمية الآخر أهمية اتحاد الأنا و الأنت.

ينتقد فويرباخ المثالية عندما تبحث عن أصل أفكارنا في الإنسان المنعزل " فمن الاتصال فقط من حوار الإنسان مع الإنسان ، تولد الأفكار ... يلزم إنسانان لإنجاب الإنسان ...اشترك الإنسان مع الإنسان هو المبدأ والمحك الأولان للحقيقة والكلية ، حتى يقين وجود أشياء خارجية عني يمر بالنسبة لي بيقين وجود إنسان آخر خارجي عني . أشك في ما أنا وحدي أراه . وحده أكيد ما الآخر يراه هو أيضا "[3]

رابعاً- الحب و ماهية الدين :

" مثل قلبك يكون إلهك " [4] هذا ما قاله فويرباخ في الفقرة الأخيرة من كتابه أصل الدين حيث يلخص ما جاء في كتابه هذا ،أما في (ماهية المسيحية) - وهو من أهم كتبه - فقد حدد فويرباخ " فكرته الرئيسية في رسالة بعث بها إلى الناشر أوتوفيغان يعلمه فيها باقترب انتهائه من تأليف الكتاب هي الموضوعية للدين ، و بشكل خاص الدين المسيحي ليس شيئاً آخر سوى ماهية القلب الإنساني ، و خاصة القلب المسيحي "[5]

لماذا الدين المسيحي حصراً ؟ هذا السؤال سنجيب عنه لاحقاً و لكن السؤال الأهم هنا هو كيف تناول فويرباخ الدين ؟ هل كان تقليدياً في تناوله هذا أم أنه أراد أن يكسر جميع القيود التي سبقته في تناول الدين هذه القيود التي جعلت الدين في مكان آخر يجهله الإنسان و مع ذلك يتناوله ، و لكن هل يستطيع الإنسان أن ينتقد أمر يجهله ، لقد حاول فويرباخ تناول الدين كجزء من الإنسان من كيانه و مشاعره لا يستطيع الاستغناء عنه لذلك رفض أن يكون الدين مفارق للإنسان ، فهل يستطيع الإنسان أن يعيش في مكان و قلبه بمكان آخر مفارق له ، و بذلك نصل إلى أن ما " يكونه الله بالنسبة للإنسان هو روحه ، نفسه ، و ما هو خاص بالروح الإنسانية نفسها ، قلبها ، هو إلهها : الله هو داخلية الإنسان الواضحة ، هو ذاته المعبر عنها ، الدين هو الاحتفال برفع الحجاب عن كنوز الإنسان

[1] فويرباخ ، لودفيغ ، مبادئ فلسفة المستقبل ، ص 296 .

[2] المرجع نفسه ، ص 296 .

[3] المرجع نفسه ، ص 305.

[4] فويرباخ ، لودفيغ ، أصل الدين، ت. أحمد عبد الحليم عطية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع ، القاهرة، 1990، ص 119.

[5] ديب ، حنا ، هيجل و فويرباخ ، ص 189.

المخبة، إقرار أفكاره الأكثر ودية الاعتراف العام بأسراره عن الحب " [1] هل هذا الدين هو إلحاد؟ هذا السؤال يبقى برسم كل من اعتبر فويرباخ ملحد، قد يكون هذا الحكم عليه لأنه رفض الدين التقليدي القائم على اللاهوت وعلى إله بعيد عن الإنسان و من طبيعة مغايرة له، و بذلك هو لم يلغ الدين المسيحي بل تحدث عن جوهره و ليس ظاهره، و عن تعاليمه بما يناسب حقيقة الدين الكامنة بداخله، فأصبح الثالوث المسيحي هو " الإيمان و الحب، و الرجاء... فالإيمان و الحب في وحدتهما يستطيعان أن يحققا رجاء البشر " [2] هذا القول يطابق قول بولس الرسول " أما الآن فتثبت الإيمان، و الرجاء، و المحبة هذه الثلاثة و لكن أعظمهن المحبة " [3] قد يكون فويرباخ أخذ من الدين المسيحي ما يوافق فلسفته الإنسانية و ليس استبدال تعاليم هذه الديانة، و لكن هل يعني هذا أنه ملحد؟ هل أنكر وجود الله؟ لقد رد فويرباخ على هذه الأقوال من خلال تعريفه للملحد حيث كتب " الملحد الحقيقي ليس ذلك الذي ينكر الله، الذات إنه ذاك الذي لا تكون المحمولات الإلهية، كالحب و الحكمة و العدل شيئاً بالنسبة له " [4] ولكن ماذا عن قول فويرباخ نفسه " الفؤاد هو المبدأ المناهض لللاهوت بالتمام " [5] أكد فويرباخ أكثر من مرة في محاضراته أن فلسفته كلها فلسفة دين، و هنا يقصد الدين بشكل عام أي " الاهتمام بالمصير الإنساني " [6] و لكن هذا لا ينفي أنه كان ينتقد بشدة " ما عده ضلالاً للعقيدة و الذي يعني ضلال اللاهوت " [7] هذا الضلال الضلال الذي يجعل الإنسان مغترباً عن ذاته، فالدين الذي يتحدث عن إله مفارق بعيد عن الإنسان ليس دين حقيقي برأي فويرباخ و هذا الدين يقوم على اعتقاد الفؤاد و ليس الفكر لأن " الفؤاد لا يعتقد بشيء آخر سوى ذاته لا يؤمن إلا بالواقع الذي لا يدحض الإلهي المطلق واقع جوهره الخاص ذاته، أما الرأس الذي لا يفهم الفؤاد فهو يحول جوهر الفؤاد الخاص إلى جوهر متميز عن الفؤاد موضوعي و خارجي " [8] و هذا الموضوعي و الخارجي هو الذي رفضه فويرباخ على اعتباره يمتلك ماهية تختلف عن ماهية الإنسان، و هذا القول لفويرباخ لا يدحض حقيقة كون الفؤاد يحتاج إلى آخر من أجل العلاقة الأهم و هي المحبة و لكن هذا الكائن الآخر يجب أن يكون مماثل للفؤاد و لا يكون من طبيعة مغايرة له فهذا الكائن يجب أن " لا يكون مختلفاً عن الفؤاد و لا يناقضه " [9] فالهوى الديني هو ذاته الفؤاد و هو الانفعال الديني و في مقابل هذا الهوى نجد اللاهوت الذي يختلف عن الهوى الديني بنقطة جوهرية " حيث الهوى الديني، الفؤاد يعلنون مثلاً الله يتعذب أما اللاهوت فيعلن الله لا يتعذب أي الفؤاد ينفي التمييز بين الله و الإنسان و اللاهوت يؤكد " [10] و هنا نجد أن الفؤاد هو الذي يؤكد رؤية فويرباخ التي تقول أنه لا فرق بين الله و الإنسان فقد خلق الإنسان الله على صورته فأين سيكون الاختلاف بينهما؟

[1] المرجع نفسه، ص 214.

[2] المرجع نفسه، ص 217.

[3] العوا، عادل، مقدمات الفلسفة، ص 373.

[4] ديب، حنا، هيجل و فويرباخ، ص 219.

[5] فويرباخ، لودفيغ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 209.

[6] فويرباخ، لودفيغ، أصل الدين، ص 9.

[7] المرجع نفسه، ص 10.

[8] فويرباخ، لودفيغ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 209.

[9] المرجع نفسه، ص 209.

[10] المرجع نفسه، ص 209.

و لإيضاح هذه الفكرة بشكل أفضل سأتوقف عند نص لفويرباخ في كتابه (أصل الدين) حيث يقول : " في الدين الطبيعي يتوجه الإنسان بنفسه إلى شيء مصاد بطريقة مباشرة للإرادة الأصلية و لمعنى الدين " [1]
 هذه الإرادة التي تفتقد لذاتها عندما تتبع الدين فيصبح هو المتحدث الرسمي برغباتها حتى يجردها من إرادتها فتصبح إرادة بلا إرادة فهي لا تملك من الإرادة إلا اسمها، و بذلك يكون الدين قد جردها من ماهيتها ، فإيهما أهم بالنسبة للإرادة أن تحافظ على ذاتها أم أن تحافظ على الدين الطبيعي على حساب وجودها .
 هذا التوجه إلى الشيء المصاد كما يسميه فويرباخ يجعل الإنسان يبتعد عن ذاته و عن جوهره من أجل كائن لا يمتلك هذا الجوهر " فهو يضحى بمشاعره و فكره من أجل كائن بدون مشاعر أو تفكير ، فهو يضع أعلاه ما يود أن يضعه في مكان أدنى منه " [2] حتى أن الإنسان من خلال هذا الدين يقوم بما لا يريد أو بالأحرى بعكس ما يريد تماما فهو " يعبد ما يتمنى أن يحكم ويعشق ما يكره في الحقيقة، ويطلب العون ممن يبحث عن العون للوقوف ضده" [3]

وهذا بالضبط ما كان يحصل على مر الأزمان ، حيث اعتقد الإنسان منذ القدم بأن قوى الطبيعة هي آلهة وكان يتصرف تجاهها بشكل مغاير لما يشعر به ، فيتوسل لها بطرق مختلفة حسب كل شعب كالهنود و الرمان وغيرهم الكثيرين و بذلك يصل فويرباخ إلى أنه " على هذا المنوال لا تعبد الأمم الخير و إنما تعبد جوهر الشر الكامن في الطبيعة أو ما يبدو لهم كذلك و من وجهة نظر الدين الطبيعي يعلن الإنسان حبه لتمثال ما بجسد خامد و لا عجب في أن يلجأ الإنسان إلى وسائل تتم عن اليأس و الاختلال العقلي حتى يجعل نفسه مسموعاً " [4] و من هذه الوسائل الوسائل -التي يتقرب من خلالها الإنسان للآلهة - ما يجعله يهدر إنسانيته و يؤدي أخيه الإنسان من أجل هذه القوى (الآلهة) لعله يُخفف من حدة غضبها " فهو قد يذهب إلى حد سفك دماء أخيه الإنسان حتى يستطيع أن يلهم الطبيعة بالمشاعر الإنسانية " [5]

هذه المشاعر التي تشكل أهم جزء من أجزاء ماهية الإنسان و التي لا تستطيع الطبيعة امتلاكها أو حتى الارتقاء إلى مستواها . هذه المشاعر التي لا تحتاج لاعتراف الإيمان بها فهي مؤسسة بنفسها ، " فحباً محدوداً بالإيمان (بالمعنى اللاهوتي) هو حب غير حقيقي ، الحب لا يعرف قانوناً آخر غير نفسه ، إنه ليس بحاجة إلى اعتراف الإيمان إنه لا يستطيع أن يكون مؤسساً إلا بنفسه " [6] فإذا تحدد الحب بالإيمان أصبح غير حقيقي ، لأنه يتقيد بقانون الإيمان و هذا يجعله يفقد ماهيته و وجوده الحقيقي و هذا ما رفضه فويرباخ منذ البداية لأن الإيمان يتبع الحب و ليس العكس ، فالحب هو علة الإيمان و ليس العكس ، فإذا تأسس الإيمان على الحب كان إيمان حقيقي ، أما بالنسبة لتأسيس الحب على الإيمان هذا يقود إلى الخطأ لأنه يجعلنا نقيم العلة على أساس المعلول في حين أن المعلول يوجد على أساس العلة ، فلا يمكن أن يسبقها في الوجود .

و في قراءتنا للدين عند فويرباخ لا بد من الحديث عن رأي أنجلز بالدين عنده حيث يرى أنجلز أن فويرباخ يُبقي على الدين الذي يشتق من العلاقة القائمة على أساس المحبة أي على أساس تلك العلاقة المستندة إلى القلب بين

[1]-فويرباخ ، لودفيغ ، أصل الدين ، ص 80 .

[2]-فويرباخ ، لودفيغ ، أصل الدين ، ص 80 .

[3] المرجع نفسه ، ص 80 .

[4] المرجع نفسه ، ص 81 .

[5] المرجع نفسه ، ص 81 .

[6] ديب ، حنا ، هيجل و فويرباخ ، ص 217 .

إنسان و آخر و هي العلاقة التي ظلت حتى الآن تسعى إلى الكشف عن حقيقتها في انعكاسات وهمية للعلاقة أي الانعكاس الوهمي للصفات الإنسانية عن طريق تصور إله واحد و آلهة كثيرة " [1] و لم يكتف أنجلز بهذا الشرح لنظرية فويرباخ الدينية ، بل رأى أيضا أن فويرباخ " يجعل من الحب أسمى أشكال الدين الذي يُبشر به ، إن لم يكن أسماها جميعا " [2] وإذا سألنا فويرباخ أين يمكننا أن نجد الله بحسب الدين الجديد الذي أتيت به ؟ فإنه سيجيبنا من خلال قوله " إن أي دين مهما كانت عظمتة يخفق إذا أردت أن تجد الله أو أن تبحث عنه في الفلك عن طريق التلسكوب أو بعدسة مكبرة في حديقة واسعة أو في طبقات الأرض ... و لكنك تجده فقط في إيمان الإنسان في خياله، وعقله وقلبه لأن الله بنفسه ليس شيئا سوى جوهر خيال الإنسان وقلبه " [3] هذا الخيال و القلب يختلف من إنسان لآخر و بالتالي يختلف هذا الإله تبعاً للخيال أو القلب الذي يتصوره، ولكن هذا لا يعني تعدد الآلهة بل الله واحد ، و لكن تختلف الرؤية لله بحسب الخيال أو القلب الذي يتصوره .

خامساً- الموت هو تجلي الحب :

كيف يكون الموت هو وجه من أوجه الحب ؟ هذا ما سنراه في فلسفة فويرباخ الذي بدأ بمقولة " الإنسان يحب ولا بد له من أن يحب " ، فهذا الكائن لا يصبح إنساناً حقا إلا عندما ينفذ عنه أنانيته الطبيعية ، و يتغلب على وجوده الساعي إلى ذاته ، فالحب يؤمن الانتقال إلى مبدأ الآخرة والمنطلق هنا هو الحب الجنسي ، فالأنا الحقيقي هو إما رجل أ امرأة ، و هذا الاختلاف الجنسي هو الذي يحدد ماهيته (الأنا) كإنسان.

يقول فويرباخ : " الاختلاف الجنسي ليس سطحياً أو محدوداً فقط ببعض أجزاء من الجسم ، إنه يخترق العظم و النخاع ، ماهية الرجل هي الرجولة ، ماهية المرأة الأنوثة ... بالتالي الشخصية ليست شيئاً بدون الاختلاف الجنسي ... حيث لا يوجد أنت لا يوجد أنا ، لكن الاختلاف بين الأنا و الأنت ، الشرط الأساسي لكل شخصية ، ليس واقعياً ، حياً و حاراً إلا بوصفه اختلافاً بين الرجل والمرأة ، للأنت بين الرجل والمرأة ذوي مختلف عن رتبة الأنت بين الأصدقاء " [4]

وعلى هذا الاختلاف تقوم الحياة الإنسانية ، وكذلك الحياة الأسمى هي التي يتخلى فيها المرء كلية عن ذاتيته الزائفة " ولكن بالإرادة ذاتها التي تريد بها الحب والحقيقة فإنك تسبب الموت " فالموت التضحية الأخيرة والبرهان النهائي على الحب ، والإنسان يغدو ذاته الحققة مرة واحدة وهو يصبح كذلك لحظة اللاوجود ومن ثم فإن الموت ولأنه يكشف النقاب عن الذات الحقيقية للإنسان هو في الوقت ذاته تجلي الحب " [5]

إن معالجة فويرباخ لمسألة الموت تختلف عن معالجة كل من الميتافيزيقا والدين لها فهو يقول " إن موتنا المادي ليس إلا نذير أخير لموتنا الداخلي ، فالموت ضرب من الاكتمال ، أي هو حالة امتلاء كما يقول ريكله: (ربما عدم البقاء هو المعنى الأوحده لهذا الوجود) " [6] فالعلاقة بين الحب والموت لا تفهم إلا من خلال الزمان الذي الذي يذكرنا دائماً بالفناء ، فإذا كان الشعور بالزمان يبلغ أوجه في الحب ، فمعنى هذا أيضاً أن الشعور بالموت يبلغ

[1] عطية ، أحمد عبد الحليم ، الإنسان في فلسفة فويرباخ ، ص 210 .

[2] المرجع نفسه ، ص 210 .

[3] فويرباخ ، لودفيغ ، أصل الدين ، ص 118 .

[4] ديب ، خنا ، هينغلو فويرباخ ، ص 289-288.

[5] شورون ، جاك ، الموت في الفكر الغربي ، ت . كامل يوسف حسين ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1984 ، ص 214.

[6] عطية ، أحمد عبد الحليم ، الإنسان في فلسفة فويرباخ ، ص 178-179.

أقصاه في الحب ومن هنا " ارتبط الموت بالحب أوثق ارتباط ، والواقع أن الموت لا يصبح مشكلة حقيقية إلا عندما يرتبط بالحب ، ألم يقل جبرائيل مارسيل : إن من أحب شخصا فكأنما يقول له : إنك لن تموت قط بالنسبة لي "[1] لو لم يكن هناك حب ، هل كان الإنسان سيفكر بالموت على النحو الذي يفكر به وهو يحب ؟ أو هل يتساوى الموت عند من يحب و عند من لا يحب؟ أيهما يجعلنا نفكر بالموت أكثر ، بل ونهابه أكثر الفكر أم الفؤاد ؟ أعتقد أن من يؤمن بالفكر المجرد لا يفكر بالموت باعتباره موت جسدي ، ولكن ماذا عن موت الذات من أجل الآخر ، ماذا عن الأناية التي لا يستطيع التنازل عنها إلا المحب ، هذا التنازل أليس موت ، فإذا كان الموت هو إنكار مادي للأنا فإن الحب هو إنكار روحي للأنا وهذا يؤكد أن جوهرهما واحد .الحب هو في نفس الوقت وجود وعدم ، حياة وموت ، ونلخص الفكرة السابقة بقول فويرباخ : " الله كإله لم يخلصنا ، بل الحب الذي يسمو فوق الفرق بين الشخصية الألوهية و الإنسانية وكما أنكر الله ذاته بدافع من الحب ، علينا نحن أيضا أن ننكر الله بدافع من الحب ، فإذا لم نضحى بالله قربانا أمام الحب ، فإننا سنضحى بالحب لله "[2]

الخاتمة :

الفلسفة هي الإنسان ، هذا الإنسان الذي لا نستطيع تجزئته فهو جسد وروح ، قلب وعقل ، فؤاد وفكر ، هو كل موحد وليس أجزاء ، وهذا محور فلسفة فويرباخ الإنسانية بامتياز ، الفلسفة الموحدة للحس والعقل ، ولن لن أستطيع أن أعبر بأفضل مما فعل فويرباخ عندما قال : " الوحدة المطابقة للحقيقة ، وحدة الرأس و القلب ، بعيدا عن التنازل إلى انطفاء أو اختناق فرقهما ، قوامها بالعكس ، في واقع أن الموضوع الأساسي للقلب هو أيضا الموضوع الأساسي للرأس ، إنها تتقوم إذا فقط في هوية الموضوع ، الفلسفة الجديدة ، يجعلها من الموضوع الأساسي و الأسمى للقلب الإنسان ، الموضوع الأخير و الأسمى للفكر أيضا ، تؤسس وحدة عقلية للرأس والقلب ، للفكر والحياة "[3]

وبهذا يكون قد أسس لفلسفة جديدة لطالما أسماها بفلسفة المستقبل ، ولكن من الممكن أن نسميها فلسفة الحب ، حيث استطاع أن يقدم الحب باعتباره وجود واقعي وليس مجرد أحاسيس لا نستطيع الاعتماد عليها في حياتنا اليومية ، بل وجعل له مكانة سامية باعتباره يؤكد وجود الإنسان ، هذا الوجود الذي كان يرتبط بالفكر قبل أن يأتي فويرباخ ويجعله يرتبط بالفؤاد فقط .

"فإنما بالحب تشعر قطرة الماء أن البحر كله مشغول بنشدها ، وهكذا يجد كل كائن في غيره مفتاح ذاته فيكشف له الدور الذي يستطيع أن يلعبه في كل أوسع منه و يصبح الحب دربه على طريق عشق العالم "[4] ومن هنا فالحقيقة التي سيشهدها العالم في المستقبل كما يقول فويرباخ هي المحبة الملموسة بين الإنسان و أخيه الإنسان . وبالتالي هو لم يؤمن بالإنسان الفرد المكتفي بذاته بل بالإنسان المتصل بالآخر ، المتفاني في سبيل الآخر .

[1]- المرجع نفسه ، ص 177.

[2] Feuerbach (Ludwig) , "The Essence of Christianity", p 53.

[3] فويرباخ ، لودفيغ ، مبادئ فلسفة المستقبل ، ص 323.

[4] عطية ، أحمد عبد الحليم ، الإنسان في فلسفة فويرباخ ، ص 173.

المصادر والمراجع :

- 1 فويرباخ ، لودفيغ ، أصل الدين ، ت . أحمد عبد الحلیم عطية ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، دم ، د.ت.
- 2 فويرباخ ، لودفيغ ، مبادئ فلسفة المستقبل ، ت . الياس مرقص ، دار الحقيقة ، بيروت ، 1975.2.
- 3 تيب ، حنا ، هيغل و فويرباخ ، دار الأمواج ، بيروت ، 1994.
- 4 شورون ، جاك ، الموت في الفكر الغربي ، ت . كامل يوسف حسين ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1984.
- 5 عطية ، أحمد عبد الحلیم ، الإنسان في فلسفة فويرباخ ، دار التنوير ، دم ، 2008 .
- 6 اللعوا ، عادل ، مقدمات الفلسفة ، جامعة دمشق ، مطبعة ابن حيان ، دمشق ، 1986 .
- 7 ماركيز ، هيرت ، العقل و الثورة (هيغل و نشأة النظرية الاجتماعية) ، ت . فؤاد زكريا ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، د . ت .
- 8 مجموعة من المؤلفين ، فلسفة الحب ، ترجمة هيثم صعب ، دم ، د.ت .

مصادر باللغة الانكليزية :

[1]-Feuerbach (Ludwig) , "The Essence of christianity", Translated from second German edition by Marien Evans , George ElialHorper& row publishers , New york and London , 1957